تطور النثر العربي الحديث

أسهمت العوامل التي تحدثنا عنها في تطور النثر العربي الحديث إذ نقلته من حالة الضعف والركود الى حالة اليقظة والنهوض، ويمكننا إجمال مظاهر هذا التعبير في ثلاثة محاور هي ،اللغة والموضوعات والفنون الأدبية .

اللغة

كانت لغة الأدب خلال قرون عدة، تميل الى التكلف، وتعنى بالزخارف اللفظية والمحسنات البديعة على حساب المعنى والفكرة، وقد أثقل ذلك كاهل اللغة بعد أن تحول بها الى ضروب من التعقيد والتكلف، بعيدا عن المشاعر والأحاسيس والأفكار وعلى لغة الحياة وتصويرها، والتأكيد على المعاني الإنسانية التي ينبغي أن يهدف اليها الكاتب وقد أسهمت العوامل التي ذكرناها في توجيه هذه اللغة كالصحافة والترجمة والبعثات وغيرها .

وقد استثمر ذلك كثير من المفكرين السياسيين والمصلحين الاجتماعيين والدينيين . وكان منهم جمهور من المترجمين قد انتفعوا بمارأوه، واطلقوا عليه في أساليب الغرب التي قطعت أشواطا بعيدة في اللغة، وانتفعوا ايضا بما رأوه في لغة أجدادهم العرب التي عادوا اليها عودة حميده، فتأثروها بعد أن وجدوا فيها كل مقومات الجمال والحيوية كما تتحرى حسن التوجه الى المعنى والفكرة، ولحظوا ذلك في كتابات الجاحظ وابن المقفع وابن الأثير والجرجاني وغيرهم، وكل ذلك الجيل كان يحسن التوفيق بين المعنى والفكرة من جهة وبين جمال العبارة وشكلها من جهة أخرى . وكانوا قبل هذا وذاك يجدون في القرآن المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذى ، فراحوا يتأثرون أسلوبه ويجرون وراء لغته العظيمة .

كل أولئك كانت تمد كتابنا باللفظة الفصيحة والعبارة المليحة والصورة الجميلة مع تجلية المعنى المطلوب والفكرة المقصودة، ولم يهملوا دواعي العصر

وأهله خصوصاً فيما كتب في صحفهم وحرروه في مقالاتهم وأخذوا في الاعتبار مستويات قرائحهم وأنماط ثقافتهم وفهمهم ومقداراستيعابهم لما يقرأون .

وبذلك كثر الحديث عن الأسلوب السهل المرسل والفصيح ، وغدت العناية تنصب على المضمون بعد أن كانت قصراً على الشكل وعمد الكتاب الى التوفيق بين شكل الكتابة بعد أن كثرت لديهم المعاني والأفكار التي يريدون ايصالها إلى القراء وأضحى وبين مضمونها الأسلوب منذ آنئذ يميل الى السهولة والوضوح ، وينأى بنفسه عن ضروب التعقيد فيطرح الكثير من السجع والبديع بعد أن كان يرهق العبارة ويخفيها ولم يتحقق هذا كله بسهولة . إذ وقف نفر من المحافظين يذودون عن الأسلوب القديم في حين راح فريق المجددين يدافعون عن نهجهم وجرت من أجل ذلك خصومات شديدة تؤكد مايسمى بمعركة الأسلوب .

وقد قررنا سابقاً أن الأسلوب قبل منتصف القرن التاسع عشر ، كان يحفل بالسجع والبديع . ثم مالبث أن تحرر من الكثير من المحسنات البديعة واللفظية ، بعد أن اهتم بالمعاني والأفكار التي تتصل بالنفس الإنسانية وتعنى بتصوير حياة المجتمع ، وتميل الى تحليل مشاكل البشر .

ومنذ أنئذ انحسرت تلك الموجة التي كانت تهتم بالزخارف وتكثر من السجع ، وصار الكاتب يكتب ليصور تجربة نفسية أو يقول شيئاً مجدداً[1]

ولايخفى أن الأسلوب الذي كان يسود كتابات الكتاب في بداية النهضة . لم يتخلص تماماً من التكلف والزخرفة والسجع ، وخاصة عند نفر من الكتاب الذين كانت نفوسهم قد تشربت بذلك الأسلوب الذي فرض نفسه على الكتاب لقرون عدة ، ووجدنا بقاياه تظهر عند عدد من الكتاب والمترجمين ، كرفاعة الطهطاوي وتلاميذه ، فالطهطاوي وان كان من أعلام التجديد والنهضة فإنه قد

---

(١) المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام:انور الجندي/٨٤٩

استخدم السجع بخاصة، في أولى كتاباته وترجماته كقوله فيما ترجم عن أحد الحكام (وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد، كما كان أعظمهم في الهيبة عند الأخدان والأضداد، رأيناه تتقلب عليه صروف الزمان، وتتلاعب به حوادث الحدثان، وهو عند النصرة يظهر الفخار، وتجلد عند الهزيمة، ولايظهر بمظهر الذل والانكسار، وبالجملة فهو أعظم الملوك في حياته كما كان عظيماً عند مماته).

غير أن أسلوب هذا الكاتب قد تغير في مراحله الأخيرة فأصبح سهلاً مرسلاً لايميل الى السجع. ولايبالغ في استخدام الزخارف اللفظية. ومن ذلك قوله في الكلام على تعليم المرأة(ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً. فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب، ونحو ذلك فإن هذا يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلاً ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن، ويمكن للمرأة عند انقضاء الحال أن تتعاطى في الأشغال والأعمال. مايتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها، فكل وطبيعة النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النسا ءعن البطالة فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل فالفعل يصون المرأة عما لايليق ويقربها من الفضيلة. واذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء)

ويلحظ من ناحية الشكل أن الطهطاوي لم يستعن بالشكل استعانة شديدة، فقد قلّ في هذا النص ورود السجع والجناس والطباق وغيرها من المحسناتُ التي تثقل النص كما لاحظنا ذلك في النص السابق.

ومن ناحية الأفكار التي وردت في النص فإنها أفكار فيها من والنضج والغاية ما يجعلها تسمو على ما ورد في النص السابق له، بل ماحصل لغيره من الكتاب فقد طرق موضوع تعليم المرأة وتثقيفها وساق الشواهد على أهميته وضرورته بل استطاع أن يتوغل إلى طبيعة المرأة وتصرفاتها ونفسيتها فيؤكد على العيوب وعلى المحاسن، ويكشف عن طبيعة المرأة وواقعها، من دون أن يقلل من قيمتها أو يجرح شعورها. والاقتراب من هذا الموضوع في زمن الطهطاوي لم يكن هينا

سهلاً حين يطرحه الكتاب . ولكن الطهطاوي كان شجاعاً في استثمار أفكاره وفنه ليقترب من مشاكل المجتمع .

غير أن هذا لايعني ان كل الكتاب قد وصلوا الى ماوصل اليه الطهطاوي ، فظاهرة العناية بالشكل ظلت تدافع عن نفسها ، وظل أصحابها يمارسونها ويعنون بها في كتاباتهم ، ولكن ذلك كله كان يجري على استحياء وكذلك دون أن يأتي على حساب المضمون وهذه الصورة الناضجة تبدو عند نفر من الكتاب الكبار الذين وعوا وظيفة الكتابة وعياً عميقاً ، استطاعوا به أن يوازنوا بين الشكل والمضمون في كتاباتهم وهذا مانلحظه عند مصطفى صادق الرافعي ومصطفى لطفي المنفلوطي وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات وطه حسين وغيرهم .

إن هؤلاء وأمثالهم قد سعوا في كتاباتهم الى تحقيق البساطة والإيجاز والبعد عن التعقيد والمبالغة في استخدام السجع ، كما أنهم حققوا المعادلة بين الشكل والمضمون وراعوا أفكار العصر ، وما يحتاجه من موضوعات تمس المجتمع وتعالج قضاياه وتحلل مشاكله .

وحققوا في كتاباتهم كذلك ، البساطه البعيدة عن التبذل ولم يعمدوا في طرحهم أفكارهم الى العمق الذي قد يستعصي على متوسطي الثقافة ، أو حتى من كان يمتلك ثقافة عادية .

وعلى العموم . فقد نجح الكتاب في استخدام أساليب تتراوح بين جمالية الشكل وبين واقعية المضمون وأهميته وضرورته .

الموضوعات:

ظلت موضوعات الأدباء والكتاب ، لقرون عدة ، بعيدة عن حاجات الناس وحياتهم ومشاكلهم . كما كانت على غير وفاق مع أمانيهم وتطلعاتهم ولاتمس مشاعرهم وأحاسيسهم .

ولكن عصر النهضة منذ منتصف القرن الثامن تحديداً حقق تحولاً ملحوظا في

ميدان الكتابة، بفضل العديد من العوامل التي ذكرنا وأصبح نجاح الأديب وسمعته وموقعه يقترن بطريقة معالجته لمشاكل الناس، كل الناس، بعيدا عن أروقة الحكام والأشخاص، وبذلك يكون قد ابتعد عن مجاملة الأخرين، على حساب السواد الأعظم من أبناء المجتمع

ولقد كثرت موضوعات الكتابة بفعل تغير المجتمع وتغير حاجاته وتطلعاته ومن هنا اتسمت موضوعات الكتابة بالتعدد والتنوع وأصبحت من الكثرة بمكان يحسد عليه الكتاب وهذا يختلف عما كانت عليه موضوعات النثر قبل ذلك إذ كانت محدودة وساذجة، بل انها صارت سخيفة حين ارتبطت بالمناسبات كالتهنئة والتعزّية ووصف الاحتفالات.

وبذلك تغيرت الموضوعات من العناية بالأفراد الى الاهتمام بالجماعات ومعنى ذلك أن الأدباء صاروا يقتربون من طبقات الأمة. كما سعوا الى تقويم المجتمع لهم بدلاً من إرضاء الحكام وعطاياهم. وبهذا يكون الكتاب قد ارتفعوا بفنهم الى مايرضي المجتمع من جهة، والى مايحقق لهم الأصالة الفنية من جهة أخرى، وصار الخطاب النثري يحلل كل جوانب الحياة من سياسية واجتماعية وتربوية وخلقية ودينية، بعد أن كان يقتصر على طبقة معينة، ونقصد الحكام ومن يدور في فلكهم.

وبذلك خرجت الموضوعات النثرية من الخصوصية الى العمومية، وتحولت الى تصوير الحكام وبيوت الولاة والأغنياء وصار الكلام في هذه الموضوعات أقربُ الى صدق الكتاب بعد أن كان أقرب الى الزيف والافتعال.

وقد اتضحت هذه الصورة من الكتابة، منذ أن تولى إسماعيل أمور السلطة في مصر، واستجاب لدواعي الإصلاح في معظم مناحي الحياة المصرية.

وعلى وفق هذه الصورة فان موضوعات النثر قد عالجت العديد من القضايا التي ترتبط بحياة الناس ومصير الأمة وهموم المجتمع بعد أن كانت تقتصر على ولاة الأمور ومن هنا فقد برزت موضوعات جديدة، تتمثل في الدفاع عن الأمة، والدعوة الى تحريرها من الظلم والاستغلال والمطالبة بحقوق الناس والتنديد

بمواقف الحكام وتصرفاتهم. وقد برز هذا الموضوع لدى مجموعة من الكتاب وزعماء الأحزاب ورجال الأصلاح أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ومصطفى كامل وسعد زغلول وغيرهم.

كما برز موضوع آخر يعالج الأوضاع السياسية ومايتصل بها من قضايا الحرية والديمقراطية وسلطات الدولة وحقوق الشعب، إذ دعى الكتاب الى الأخذ بنظام الشورى وممارسة ممثلي الشعب لحقوقهم ومراقبة شؤونهم. ولقد ظهر هذا الاتجاه عند مجموعة من الكتاب والشعراء، أمثال عبدالله النديم وأديب اسحق ومحمود سامي البارودي ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني. ومن الموضوعات الجديدة التي برزت في كتابات الكتاب مقاومة الاستعمار ومحاربة الاحتلال واثارة المشاعر الوطنية في نفوس الشعب والمطالبة بطرد المحتلين والتحريض عليهم. ومن ذلك أيضاً تصوير الحياة الاجتماعية وتحليل عيوبها من مثل الفقروالجهل، وكذلك هاجموا الحضارة الغربية التي تهدف الى غزو الأمة العربية والاسلامية بما تشيعه من فساد وتدخل من عادات وتقاليد لاتنسجم مع عاداتنا وتقاليدنا، وكذلك تصوير تشكيك الغرب بقدراتنا وتراثنا وأفكارنا وقيمنا مما يعزز التقاعس والكسل والاحباط الذي أصيبت به أمتنا.

لقد دعى هؤلاء المصلحون الى العودة الى تراث الأمة والتمسك بقميها، كما دعوا الى تعميق الإيمان بديننا والحرص على التمسك بعروبتنا والاهتمام ببناء مجتمع يسوده الرضا، ووطن يعمه الخير، كما حظوا على التسلح بالأخلاق الحميدة والتمسك بالقيم العالية، وطالبوا بتربية جيل قوي متعلم وشعب متحرر متحمس لكل ما يعود على الأمة بالخير والعطاء والحرية والبناء. وعلى الرغم مما في هذه الموضوعات من جدة وحيوية وواقعية، الاّ أن الموضوعات الأخرى كموضوعات المناسبات والتهنئة وغيرها، ظلت ولكنها كانت تطفو على السطح إن صحّ التعبير وعلى العموم فإن موضوعات النثر استطاعت أن تجد لها مكانا لدى الكتاب الذين نالوا الشهرة بوصفهم زعماء سياسيين أو رجالاً وطنيين أو مصلحين اجتماعيين أو مفكرين مجددين. وبذلك يكون النثر قد خطا خطوات

ناجحة عملت على تقدمه وتطوره واحتلال موقعه جنباً الى جنب مع ما أحرزه الشعر من مكانه منذ خطا البارودي خطواته الناجحة حين أعاد للشعر هيبته واستعاد له موقعه بعد أن كان هو الآخر ينوء بالتقليد.